نظرية الثقافة ومصطلاحاتها المعاصرة

مصطلح « الثقافة » Culture كما يستخدمه اليوم الباحثون والدارسون يرجع إلى عهد حديث نسبيًا رغم أن اللغة العربية واللغات الأوروبية قد عرفت اللفظ منذ عهدًا بعيدًا . ولكن كلمة « الثقافة » لم تتخذ معنى محددًا إلا على أيدى علماء الاجتماع الذين استبعدوا كثيرًا من معانى هذه الكلمة فى اللغات الأوروبية بوجه خاص كمعنى التثقيف والتهذيب .

وأصبحوا يستعملونه كمصطلح للدلالة على ما صنفه أى شعب من الشعوب ، أو ما أوجده لنفسه من مصنوعات يدوية ، ومحرمات ونظم اجتماعية .. إلخ .

والثقافة من وجهة النظر الأنثروبولوجية هى مجمل التراث الاجتماعى ، أى هى أسلوب حياة المجتمع . وعلى هذا الأساس فإن لكل شعب ثقافة ، بمعنى أن له أنماطًا معينة من السلوك والتنظيم الداخلى لحياته ، والتفكير والمعاملات التى اصطلحت عليها الجماعة فى حياتها والتى تناقلتها الأجيال المتعاقبة عن طريق الاتصال والتفاعل الاجتماعى ، وعن طريق الاتصال اللغوى والخبرة بشئون الحياة المختلفة .

والثقافة دائمة التغير بما تضيفه إليها الأجيال الجديدة من خبرات وأدوات وقيم وأنماط سلوكية أو بالعكس بما تستبعده أو تحذفه من بعض الأساليب أو الأفكار أو الأدوات القديمة التى لم تعد تتفق مع ظروف حياتها الجديدة . وتتفاوت المجتمعات فى تغيرها الثقافى من حيث طبيعة التغير وسرعته والأسباب الداعية إليه .

وكلمة « الثقافة » بمعناها الاصطلاحى الفنى الأنثربولوجى الحديث ، قد ظهرت فى اللغة الإنجليزية عام 1830م على يد عالم الاجتماع الإنجليزى تايلور الذى تردد بينها وبين كلمة « حضارة » ثم فضل أخيرًا مصطلح الثقافة . وقد فرق العلماء الألمان بين الثقافة والحضارة . فالأولى تختص بالأنشطة التكنولوجيا أو الاقتصادية ، أما الحضارة فتختص بالجوانب الروحية .

لكن الفرد فيبر استطاع أن يوضح الفرق بينهما بصورة دقيقة وخص الحضارة بالأنشطة التكنولوجيا والموضوعية . أما الثقافة فتختص بالجوانب الروحية الذاتية كالدين والفلسفة والفن .

والثقافة تعنى بالنسبة لتيلور ذلك الكل المركب الذى يشمل المعلومات والمعتقدات والفن والأخلاق والعرف والتقاليد والعادات وجميع القدرات الأخرى التى يستطيع الإنسان أن يكتسبها بوصفه عضوًا فى مجتمع .

ومفهوم الثقافة تناولته نظريات عديدة ، هناك نظرية رالف لنتن الأمريكى ، ونظرية مالينفسكى البولندى ووليام سمنر الأمريكى .

يرى لنتن أن الأساس الذى تقوم عليه الثقافة هو الفرد ، فعلى الرغم من وثاقة العلاقة الوظيفية بين الفرد والثقافة والمجتمع فإنه يرى ضرورة التفرقة بينهم فالفرد يحتل مكانه هامة لبقاء المجتمع الذى يعيش فيه والاستمرار وفاعلية الثقافة التى يسهم فيها ويتفاعل معها فإن حاجاته وإمكانياته تعتبر أساس كل الظواهر الاجتماعية والثقافية .

إن حاجات الفرد - فيما يرى - هى دوافع السلوك الأساسية وعلى ذلك تعتبر هى المسئولة عن تفاعل المجتمع والثقافة وهذا يتطلب الاهتمام بدراسة البيئة الاجتماعية حتى نستطيع فهم الشخصية . والبيئة هنا تعنى الظواهر الطبيعية التى لابد أن تتغير بتغير الزمان والمكان هذا فضلاً عن البيئة الإنسانية التى تفوق البيئة الطبيعية فى الأهمية وفى تفسير الظواهر الاجتماعية للثقافة . وهذه البيئة الإنسانية ليست سوى مجموعة منظمة من الأفراد الآخرين نطلق عليها اسم المجتمع الذى يكون له أسلوب خاص فى الحياة يعرف هذا الأسلوب بالثقافة . وتفاعل الفرد مع كل هذا هو الذى يشكل أنماط سلوكه .

أما مالينفسكى فنظرية الثقافة فى رأيه قائمة على أساس الحاجات الأساسية والاحتمالات المختلفة لإرضائها .

والثقافة - فيما يرى - تنهض على أساس مجموعة واسعة من الوسائل بعضها مادى وبعضها إنسانى وبعضها روحى . وهذه الوسائل هى التى تعين الشخص على معالجة المشاكل المحسوسة التى تصادفه .

فالشخص له جسد خاضع لعدة حاجات عضوية ويعيش فى بيئة موالية له . وعلى هذا الأساس فإن نظرية الثقافة تقوم على الحقائق البيولوجية وعلى الحقائق البيئية . فهذه البيئة لابد أن تظل على الدوام مستمرة ومتجددة . وهذا التجديد يتوقف بدوره على المستوى الثقافى فى المعيشة .

والتقاليد الثقافية لابد أن تورث من جيل لآخر فى ظل مجموعة من القواعد والوسائل التربوية من ناحية وفى ظل مجموعة من النظم والقوانين من ناحية أخرى . كما أنها وثيقة الصلة بالتنظيم الإنسانى أو النظام الاجتماعى القائم على مجموعة من القيم التقليدية هى التى تجمع الناس بعضهم ببعض .

أما نظرية « سمنر » فتقوم على فكرة الطرق الشعبية أو العادات الاجتماعية التى تقترب فى معناها كثيرًا من الثقافة بل إنها تمثل المحتوى الأساسى للثقافة . إلى جانب الحاجات الضرورية التى تتطلب الإرضاء والإشباع .

ولإرضاء الحاجات الضرورية لابد من قيام الناس بأفعال أو طرق أو أساليب مختلفة يغلب عليها طابع المحاولة العشوائية . وهذه الأساليب لابد أن تتكرر مرة بعد الأخرى ، وفى أثناء هذا التكرار لا يلبث الناس أن يكتشفوا عن طريق التجربة والطرق الفاشلة أسلوب الحياة المناسب .

وحين يكشف صلاحية أسلوب ما أو قيمة طريقة ما من طرق السلوك فى إرضاء حاجاتهم فإنهم يتمسكون بها مع مرور الزمن وعلى هذا الأساس تصبح عادة اجتماعية يتعارف عليها الناس ويعملون على ترسيخها كما يعملون أيضًا على نقلها من الجيل الواحد أو الأجيال المتعاقبة فى شكل أعراف وتقاليد تحرص عليها الجماعة .

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن خصائص الثقافة ومميزاتها رأينا أن هناك صفات أساسية هامة تتصف بها الثقافة ، التى لا توجد دون وجود مجتمع إنسانى ، ولا يوجد مجتمع إنسانى دون وجود الثقافة وهى تشمل جميع نواحى التراث الاجتماعى البشرى . وبدأت منذ أن بدأ الإنسان يستخدم عقله فى سبيل الوصول إلى حياة أفضل بمعنى أنها نشأت نتيجة صراع العقل الإنسانى مع الطبيعة ومحاولة التحكم فى الظروف المحيطة به . وعملية خلق الثقافة عملية بطيئة وتدريجية وغير ملحوظة .

والثقافة اجتماعية بطبيعتها بمعنى أن الأفراد الذين يعيشون فى جماعات أو مجتمعات منظمة لابد أن يشتركوا فى ثقافة معينة وهى التى تجعلهم يميلون إلى أداء الأفعال بالطريقة نفسها تقريبًا . وهذا هو السبب الذى يجعل الناس فى جماعة معينة أو مجتمع معين يبدون متشابهين بالنسبة للغرباء عن جماعتهم فالعادات التى يشترك فيها أعضاء الجماعة بعضها مع بعض هى التى تكون ثقافة تلك الجماعة . فالعادات المشتركة فى جماعة اجتماعية معينة هى التى تكون الثقافة أو الثقافة الفرعية .

والثقافة شئ يكتسب عن طريق صلة الأفراد وعلاقاتهم بالآخرين . ويمكن أن ننظر إلى عملية اكتساب الثقافة من خلال أبعاد وزوايا متعددة نعبر عنها بعدد من المصطلحات مثل الوراثة الاجتماعية ، والاستعارة والانتشار ، والتنشئة الاجتماعية .

والثقافة تنتقل من جيل إلى جيل فى شكل عادات وتقاليد ونظم وأفكار ومعارف يتوارثها الخلف عن السلف عن طريق الوسائل المادية والرموز اللغوية كما أنها تنتقل من وسط اجتماعى لآخر . والعادات الاجتماعية التى تكون الثقافة تنظر إليها باعتبارها نماذج مثالية ينبغى على أعضاء الجماعة أن يتخذوها ويتكيفوا معها . وأهمية دخول النموذج أو المثال تبدو فى صورة توحيد أنماط السلوك بين أفراد الجماعة .

والثقافة دائمًا اشباعية ، وتتشابه مع ثقافات أخرى ناتجة عن الحقيقة القائلة بأن الدوافع الإنسانية الأساسية تتطلب أشكالاً متماثلة من الإشباع . والثقافة تتغير وهذه العملية توصف بأنها عملية تكيفية .

والثقافة تتكيف عن طريق الاستعارة والتنظيم وذلك بالنسبة للبيئة الاجتماعية للشعوب المجاورة وتتكيف كذلك بالنسبة للتغيرات التى تطرأ على مظاهر المتطلبات البيولوجية والسيكولوجية للفرد . وعندما تتغير ظروف الحياة فإن الأشكال التقليدية ، تتوقف عن مد الإنسان بحد أدنى من الإشباع . وعلى هذا الأساس تستبعد وتظهر حاجات جديدة وتظهر تكيفات ثقافية جديدة لها .

والثقافة خاضعة لقانون التغير الذى تخضع له جميع مظاهر الكون . وهذا التغير يحدث فى العناصر المادية وغير المادية ، والعناصر المادية تتضمن الأثاث والملابس والآلات والملابس والآلات ووسائل المواصلات .. الخ .

أما العناصر غير المادية فتشمل العادات والعرف والتقاليد وآداب السلوك والفن واللغة والأفكار والمعلومات .

وإذا أردنا أن نتوقف على تعريف للثقافة وجدنا أن هناك اتجاهين أحدهما تنظر إلى الثقافة على أنها تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والأيديولوجيات وكافة الإنتاج العقلى إما الاتجاه الثانى فيرى أن الثقافة تشير إلى النمط الكلى لحياة شعب من الشعوب ويدخل فى نطاق هذه الحياة العلاقات الشخصية بين الأفراد . وفى هذا الصدد ينبغى الحديث عن مصطلحات أساسية تحكم هذا المضمار كما ينبغى أن نميز بينهم . وهذه المصطلحات هى التحيزات الثقافية والعلاقات الاجتماعية ، وأنماط الحياة . والعلاقات الاجتماعية تعرف بأنها أنماط العلاقات الشخصية بين الأفراد .

وبصفة عامة أن الثقافة هى ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه أو نقوم بعمله وعلى هذا الأساس نفهم أن هناك عناصر مختلفة ينهض عليها هذا التعريف هى العناصر السابقة أو المصطلحات التى سبق الإشارة إليها وهى تقوم على العلاقات الارتباطية بين قابلية نمط الحياة للنمو وبين التوافق والانسجام بين العلاقات الاجتماعية والتحيزات الثقافية .

وأنماط الحياة تتمثل فى التدرجية ، والفردية والاستقلالية ، والمساواتية ، وفى ظل هذا النمط من الحياة يتحرك الناس وفقًا لمدى تأثير عضوية الجماعة على الفرد ، ومدى استغراقها الحياة ، الأمر الذى يؤثر بالتالى على درجة ارتباط الفرد بالجماعة إذ كلما زاد هذا الارتباط ارتفعت الحواجز بين أعضاء الجماعة .

ونمط الحياة فى العصر الحاضر يتميز بسرعة التغير ، وهذا النوع من التغير يحول شئ بسرعة إلى شئ يتعلق بالماضى ويصبح الفكر فى حالة تقدم وعدم استقرار . فى حين كان هذا الفكر يتميز فى العصور السابقة التى كانت تمتاز باستقرار الفكر بصورة كبيرة نتيجة العادات الثابتة .

كل أفعال الناس فى الحياة - فيما يرى عالم الثقافة الأمريكى وولتر باجوت Walter Bagehot - تخضع لقاعدة واحدة ولهدف واحد يسمى

المران الوراثى أو التكرار الذى يعتبره عاملاً جوهريًا للاستقرار وهذا العامل موجود فى كل المجتمعات .

لكنه يرى فى نفس الوقت أن الثقافة كلما تعقدت وازدادت نسبة المدنية كان تطبيع الأفراد أمرًا بالغ الصعوبة لأن الفرد وتطبيعه يحدثان فى جو مفعم بالصراع بين عوامل مضادة وقيم غير ثابتة فى مقاديرها أى فى نسيج اجتماعى مهتز أشد الاهتزاز .

والثقافة التى تحكم حياة الفرد إما أن تكون ثقافة ظاهرة ، أو ثقافة ضمنية ، الأولى تشتمل على الأفعال والأقوال والنشاطات التى يمكن ملاحظاتها عن طريق الحواس وبخاصة حاستى السمع والبصر . أما الثقافة الضمنية فتتمثل فى الدوافع الكامنة وراء السلوك .

والثقافة عبارة عن بناء يتكون من جهاز منسق من النظم الاجتماعية الرئيسية التى تمثل نواحى الحياة المختلفة ، وأن كلا من هذه النظم الرئيسية يتبعه عدد من النظم الفرعية ، كالهيئات والجمعيات والمؤسسات وكافة هذه النظم الفرعية وما يرتبط بها من جماعات الناس تخدم النظم الاجتماعية الرئيسية وما ترسمه هذه النظم من أنماط ثقافية يعيش وفقها الأفراد كما تخدم وتباشر ما ترعاه من موضوعات وقواعد وأفكار وعادات وتقاليد وقيم .

والثقافة ليست مجرد مجموعة من النظم المجتمعة المتراصة بل هى مركب متصل الأجزاء . ففى كل مجتمع نجد أن النظم الاجتماعية الرئيسية منها والفرعية وما يتصل بها من أنماط والسلوك والتفكير تنسيق فى مجموعة ثقافية واحدة أو إطار ثقافى واحد تنسجم أجزاؤه بعضها مع بعض وعلى هذا الأساس نفهم أن أى نظام اجتماعى لابد أن تربطه بالنظم الأخرى فى المجتمع باعتبار أن هناك تأثيرًا وتأثرًا بين بعضها والبعض فى صورة تفاعل مستمر ومتبادل . ولما كانت الثقافة - بالمعنى الواسع - تتضمن عناصرها الفن واللغة وكافة الإنتاج الفكرى ، فإننا قد اضطررنا أن نتناول بعض مصطلحات اللغة والأدب والنقد باعتبارها عناصر تدخل فى بناء نظرية الثقافة ، هذا إلى جانب المصطلحات الأساسية فى هذه النظرية .